والحق أن طبيعة المخالطة والالتقاء لا تسمح بالانتقاء والتخير للأحسن فقط ، بل إنها لتجلب على هؤلاء المخالطين ألفاظا وظواهر لغوية يمكن ألا توصف — كما رأى ابن فارس والفارابي — بالحسن والصفاء والفصاحة والسهولة ، وبخاصة قريش ، إذ كانت تسكن مكة وما حولها وهم من أهل المدن ، وقريش تجار ، والتجارة تفسد اللغة ، وكان ذلك مما عيب على قريش نفسها فيما بعد ، فرفض العلماء الأخذ بلغتها أو لغة حاضرة الحجاز عموماً .

ويبدو أن السبب فى رواج فكرة فصاحة قريش واعتبار لغتها سيدة اللغات يعود إلى الرغبة فى إعلاء شأن قريش ، لدافع دينى لا لواقع لغوى ، فما دام رسول الله منهم وهو سيد العرب والعجم ، وما دام القرآن قد نزل عليه فيهم ، وهو سيد كلام العرب ، فإنه ينبغى للغتهم أيضاً أن تكون سيدة اللغات ، وبها توحدت لهجاتهم .

والذى أميل إليه فى هذه المسألة : أن قريشا كانت مثل غيرها من قبائل العرب تستخدم اللغة الفصحى كما يستخدمها غيرها ، وأنه كان لها لهجة خاصة بها — إلى جوار ذلك — فيها من الظواهر والسمات ما تفردوا به عن غيرهم ، وحين نزل القرآن بالفصحى — لغة العرب جميعاً — زاد الفصحى قوة ، ووجد الناطقون العرب فيه نصاً نموذجياً أعجبوا به واحتذوه .

• قال ابن جنى : إن العرب — وإن كانوا كثيراً منتشرين ، وخلقا عظيما فى أرض الله — غير متحجزين ولا متضاغطين ، فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم يحرون مجرى الجماعة فى دار واحدة ، فبعضهم يلاحظ صاحبه ، ويراعى أمر لغته ، كما يراعى ذلك من مهم أمره ، فهذا هذا[1] .

فابن جنى يقدم صورة حية للطريقة التى توحدت بها لغة العرب ، فهم

---

(١) الخصائص ج ٢ ص ١٥ — ١٦ .